

واحرَّ قلباه للمتنبى
بين مشاعر الحب وصيحات العتاب

وقال المتنبي (*) يعاتب سيف الدولة: وأنشدها في مَحْفَلٍ من العرب. وكان سيف الدولة إذا تأخر عنه مدحه شقَّ عليه، وأحضر من لا خير فيه، وتقدم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب، وأكثر عليه مرة بعد مرة، فقال يعاتبه(**):

"1-3" حب المتنبي لسيف الدولة وإهمال سيف الدولة له

- 1-واحرَّ قلبُهُ ممَّنْ قلبُهُ سَبِيْمٌ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ (١)
2-مالي أَكْتَمُّ حُبًّا فَدَّ بَرَى جَسَدِي وَتَدَّعَى حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الأَمَمُ (٢)

(*) أبو الطيب المتنبي (303-354هـ / 915-965م) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين. ولد في الكوفة في محلة تسمى "كندة" وإليها نسبته وتنبأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. وقال الشعر صبيّاً وتنبأ في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون، وقبل أن يستقل أمره خرج إليه لؤلؤ (أمير حمص ونائب الإخشيد) فأسرّه وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه. وقد على سيف الدولة بن حمدان وصاحب حلب، سنة 337 فمدحه وحطى عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى وطلب منه أن يوليه، فلم يولّه كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوّه، وقصد العراق، فقرئ عليه ديوانه، وزار بلاد فارس فمر بأرجان ومدح فيها ابن العميد وكانت له معه مساجلات، ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة بن بويه الديلمي. وعاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه، ومع المتنبي جماعة أيضاً، فاقتتل الفريقان، فقتل أبو الطيب وابنه محسد وغلّامه مفلح، بالنعمانية، بالقرب من دير العاقول (في الجانب الغربي من سواد بغداد). وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الأسدى العيني، الذى هجاه المتنبي بقصيدته البائية المعروفة وهى من سقطات المتنبي. أما ديوان شعره فمشروح شروحاً وافية. وتبارى الكتاب قديماً وحديثاً فى الكتابة عنه فألف الجرجاني الوساطة بين المتنبي وخصومه، وطه حسين مع المتنبي، وشفيق جبرى: المتنبي. انظر فى هذا: الأعلام، 115/1.

(**) هذه المقدمة للقصيدّة والقصيدّة نفسها، والشرح الذى أسفلها – نقلاً عن: ديوان المتنبي بشرح أبى البقاء العكبرى المسمى بالبيان فى شرح الديوان. ضبطه وصحّحه ووضع فهراسه: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى. بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، دت، 362/3-374.

(١) الشبم: البارد. والمعنى: يقول: واحرَّ قلبى واحتراقه، واستحكام همّه بمن قلبه عنى بارد لا اعتناء له به، ولا إقبال له على، ومن بجسمى وحالى من إعراضه سقم يُوجب ألمهما، وشكاة تؤذّن اختلافهما.
(٢) أكتّم: مبالغة فى الكتمان، برى جسدى: أنحلّه وأضناه. والمعنى: يقول: لأى شيء أخفى حبه؟ وغيرى يُظهر أنه يحبه، وهو بخلاف ما يضمّر، وأنا مضمّر من حبه، ما يزيد مضمّره على ظاهره، ومكتومه على شاهده، والأمم تشركنى فى ادّعاء ذلك، بقلوب غير خالصة، ونيات غير صادقة، فينحلّ جسمى بتقدّمى فى صدق ودّه، وتأخرى فيما يخصّنى من فضله.

- 3- إِنْ كَانَ يَجْمَعُنَا حُبٌّ لِعُرَّتِهِ فَلَيْتَ أَنَا بِقَدْرِ الْحُبِّ نَقْتَسِمُ (١)
- مدح المتنبي سيف الدولة بالنصر على الأعداء
- 4- قَدْ زُرْتُهُ وَسُيُوفُ الْهِنْدِ مَعْمَدَةٌ وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَالسُّيُوفُ دَمٌ (٢)
- 5- فَكَانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ وَكَانَ أَحْسَنَ مَا فِي الْأَحْسَنِ الشَّيْئِ (٣)
- 6- فَوْتُ الْعَدُوِّ الَّذِي يَمَمْتَهُ ظَفْرٌ فِي طَيْهِ أَسْفَ فِي طَيْهِ نَعَمْ (٤)
- 7- قَدْ نَابَ عَنكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَاصْطَنَعْتُ لَكَ الْمَهَابَةَ مَا لَا تَصْنَعُ الْبُهْمُ (٥)
- 8- أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ شَيْئًا لَيْسَ يَلْزُمُهَا أَنْ لَا يُوَارِيَهُمْ أَرْضٌ وَلَا عِلْمٌ (٦)
- 9- أَكَلَّمَا رُمْتَ جَيْشًا فَاثْنَى هَرَبًا تَصَرَّفْتَ بِكَ فِي آثَارِهِ الْهِمَمُ (٧)
- 10- عَلَيْكَ هَزْمُهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ وَمَا عَلَيْكَ بِهِمْ عَارٌ إِذَا انْهَزَمُوا (٨)
- انْهَزَمُوا (٩)
- 11- أَمَا تَرَى ظَفْرًا حُلُوا سِوَى ظَفْرِ تَصَافَحَتْ فِيهِ بِيضُ الْهِنْدِ وَاللَّمَمُ (١٠)
- وَاللَّمَمُ (١١)

- (١) العُرَّة: الطلعة، والوجه الحسن: الأغر. والمعنى: إن كان يجمعنا حبه والكلف بموتته، فليت أنا نقسم المنازل عنده بقدر ما نحن عليه من محبتنا الخالصة، وما نعتقده من مودتنا الصادقة، فلا يبخسن المخلص حقه، ولا يبذل للمتصنع برّه.
- (٢) المعنى: يريد أنه قد شهد في شدائد الحرب، وقد جرب في الضيق والسعة، وامتنحه في الأمن والخوف، فأعجبه كيف تقلب، وأحمد على أي حال تصرفت.
- (٣) الشيم: جمع شيمة، وهي الخليقة والصفة. والمعنى: يقول: لما بلوته في حالتيه كان أحسن الخلق، وكانت أخلاقه أحسن ما فيه.
- (٤) الظفر: الفتح والظهور على العدو، والنعم جمع نعمة، والمعنى: يقول فوت العدو الذي قصدته ففر عنك لاستحكام جزعه، ظفر ظاهر، واستعلاء بين، وإن كان ذلك الظفر في طيه منك أسف على ما حرمته من إدراكه، وفي طي ذلك الأسف نعم بها صرف الله عنك مؤنة الحرب، وشدّة معاناة اللقاء، وحفظ عسكريك من جراح أو قتل، ففي هذا نعم من الله كثيرة.
- (٥) المهابة: شدّة الفزع، البهيم: الأبطال، والمفرد: البهمة. والمعنى: يقول: قد ناب عنك خوف العدو لك، فذعره وهزمه، وصنعت لك فيه مهابتك، وبلغت لك مخافتك ما لا تصنعه الشجعان.
- (٦) يواريههم: يسترهم، العلم: الجبل الطويل الوعر المسلك. والمعنى: يقول: قد ألزمت نفسك ما لم يكن يلزمها، وكلفتها ما لا يحق لك، من أن عدوك لا يواريههم أرض تشتمل عليهم، ولا يسترهم عنك جبل يحول بينك وبينهم، وهذا غاية التكلف.
- (٧) المعنى: يريد: كلما فرّ جيش من جيوش الروم، وولّى عنك هارباً تصرفت بك همتك في أثره، فلم يُرْضك انهزامهم دون أن ينالهم القتل، ويستحكم فيهم السيف.
- (٨) المعتزك: ملتقى الحرب. والمعنى: يقول: عليك أن تهزمهم إذا التقوا معك في حرب، ولا عار عليك إذا انهزموا، فتحصنوا بالهرب ولم تظفر بهم.
- (٩) تصافحت: تلاققت بالصفاح، وهي السيف، اللمم: جمع لمة، وهي الشعر إذا ألم بالمنكب. والمعنى: يقول: ليس يحلو لك ظفر تناله، وأمل في عدوك تبغعه، إلا أن يكون ذلك بعد مصادمة

المتنبى يعاتب سيف الدولة بقدر من الجرأة

- 12- يا أعدلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ (٦)
- 13- أَعِيدَها نَظْرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٍ أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرُمٌ (٧)
- 14- وَمَا انْتَفَاحُ أُخَى الدُّنْيَا بِنَاطِرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلْمُ (٨)

وقتال، ومجادلة ونزال، وبعد مصافحة سيوفك رءوسهم، وتباشر سلاحك خيولهم، فهذا هو الظفر الحلو عندك.

(٦) الخصام: المخاصمة، والخصم: يقع على الواحد والجماعة. والمعنى: يقول لسيف الدولة: يا أعدل الناس في أحكامه، وأكرمهم في أفعاله إلا في معاملتي، فإنه يخرجني عن عدله، ويضيِّق علي ما قد بسط من فضله، فيك خصامي وتعبي، وأنت خصمي وحكمي، فأنا أخاصمك إلى نفسك، وأستدعي عليك حكمك.

(٧) الورم: الانتفاخ في العضو من ألم يصيبه. والمعنى: يريد: أن نظراتك صادقة إذا نظرت إلى شيء عرفته على ما هو عليه، فلا تغلط فيما تراه، ولا تحسب الورم شحمًا، وهذا مثل، يريد: لا تظنَّ المتشاعر شاعرًا، كما يحسب السقم صحة، والورم سمًا.

(٨) المعنى: يجب أن تميز بينى وبين غيرى ممن لم يبلغ درجتى، كما تميز بين النور والظلمة.

فخر المتنبي بنفسه

- 15-أنا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي وَأَسْمَعْتَ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمْمٌ (٦)
- 16-أَنَا مِمَّنْ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ (٧)
- 17-وَجَاهِلٍ مَدَّهُ فِي جِهَلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فِرَاسَةٍ وَفَمٌ (٨)
- 18-إِذَا نَظَرْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنِّي أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمٌ (٩)
- 19-وَمُهْجَةٍ مُهْجَتِي مِنْ هَمِّ صَاحِبِهَا أَدْرَكْتُهَا بِجَوَادِ ظَهْرِهِ حَرَمٌ (١٠)
- 20-رِجْلَاهُ فِي الرَّكِيضِ رِجْلٌ وَالْيَدَانِ يَدٌ وَفِعْلُهُ مَا تُرِيدُ الْكَفَّ وَالْقَدَمُ (١١)
- 21-وَمَرُّهُ هَفٍ سِرْتُ بَيْنَ الْجَحْفَلِينَ بِهِ حَتَّى ضَرَبْتُ وَمَوْجُ الْمَوْتِ يَلْتَطِمُ (١٢)
- 22-فَالْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تُعْرِفُنِي وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ (١٣)
- وَالْقَلَمُ (١٤)

- (٦) المعنى: أى أنا الذى شاع أدبى، واستبان موضعى، فثبت ذلك فى العقول، وتمكن فى القلوب، ورآه من لا يبصره، وأسمعت كلماتى: أى قصائدى .. من لا يسمع.
- (٧) الشوارد: النوافر، من قولهم، شرد البعير إذا نفر، ويقال: فعلت ذلك من جرّك؛ أى من أجلك. والمعنى: يقول: أنام ساكن القلب، متمكّن النوم، لا أعجب بشوارد ما أبدع، ولا أحفل بنوادر ما أنظم، ويسهر الخلق فى تحفظ ذلك وتعلمه، ويختصمون فى تعرفه وتفهمه، فأستقلّ منه ما يستكثرون، وأغفل عما يغتثمون.
- (٨) أصل الفرس: دقّ العنق، ومنه سمى الأسد فراساً. والمعنى: يقول: رُبَّ جاهل خدعه تركى له فى جهله، وضحكى منه، حتى افترسه بعد زمان فأهلكته.
- (٩) النيوب: جمع ناب، والليث: الأسد. والمعنى: يقول: إذا كثر الأسد عن نابه، فليس ذلك تبسماً، وإنما هو قصد للاقتراس وهذا مثل ضربه، يعنى أنه وإن أبدى بشره للجاهل، فليس هو رضا عنه، فإن الليث إذا كثر لا تظنه مبتسماً، وإن ذلك أقرب لبطشه.
- (١٠) المعنى: يقول: ربّ إنسان طلب نفسى، كما طلبت نفسه، فأدركتها على جواد ظهره حرم، لأمن راكبه؛ لأنه لا يُقدّر عليه، فكأنه حرم.
- (١١) المعنى: يقول: هو صحيح الجرى، يصف استواء رفع قوائمه، وصحة جريه، فكان رجليه رجل واحدة؛ لأنه يرفعهما معاً، ويضعهما معاً. وكذلك اليدان. وهذا الجرى يسمّى النقال والمناقلة، وفعله ما تريد الكف بالسوط، والرجل بالاستحثاث، فهو بجريه يغنيك عنهما.
- (١٢) المرهف: السيف الرقيق الشفرتين، الجحفلان: الجيشان العظيمان، المعنى: يقول: رُبّ سيف رقيق الحدين سرت به بين الجيشين العظيمين، حتى قاتلت به والموت غالب، تلطم أمواجه، يضطرب بحره. واستعار الموج لكتائب الحرب.
- (١٣) البيداء: الفلاة البعيدة عن الماء، القرطاس: الكتاب فيه الكتابة، ويجمع القرطيس. والمعنى: يقول: الليل يعرفنى لكثرة سُرأى فيه، وطول ادّراعى له، والخيل تعرفنى لتقدّمى فى فروسيّتها، والبيداء تعرفنى ب مداومتى لقطعها، واستسهال أصعبها، والحرب والضرب يشهدان بحذقى لهما وتقدّمى فيهما، والقرطيس تشهد لى لإحاطتى بما فيها، والقلم عالم بإبداعى فيما يقبّده.

23-صَحِبْتُ فِي الْفَلَوَاتِ الْوَحْشَ مَفْرَدًا (١) حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي الْقُورُ وَالْأَكْمُ (٢)

عودة المتنبي لعتاب سيف الدولة بجرأة شديدة

- 24-يا مَنْ يَعْزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ (١) وَجَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ (٢)
- 25-ما كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ (١) لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمُّ (٢)
- 26-إِنْ كَانَ سِرُّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا (١) فَمَا لَجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلْمُ (٢)
- 27-وَبَيْنِنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةً (١) إِنْ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ ذِمُّ (٢)
- 28-كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ (١) وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ؟ (٢)
- 29-ما أَبْعَدَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصَانَ عَنْ شَرْفِي (١) أَنَا الثَّرِيًّا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ (٢)
- 30-لَيْتَ الْعِمَامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ (١) يُزِيلُهُنَّ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيمُ؟ (٢)

قرار المتنبي بالرحيل بسبب التجاهل وسوء المعاملة

- (١) القور: الأكمة. والمعنى: يقول: سافرت وحدي، فلو كانت الجبال تتعجب من أحد، لتعجبت مني لكثرة ما تلقاني وحدي، فصحبت الوحش في الفلوات، منفردًا بقطعها، مستأنسًا بصحبة حيوانها، حتى تعجب مني سهلها وجبلها، وقورها وأكمها.
- (٢) المعنى: يريد: يا من يعز علينا مفارقتك بما أسلف إلينا من فضله، واستوفرننا من الحظ بقربه، وجداننا كل شيء طائل بعدكم عدم لا نسرُّ به ومحقر لا نبتهج له، يريد: لا يخلفكم أحد.
- (٣) ما أخلقه: ما أولاه وأجدره، الأهم: القصد. والمعنى: يقول: ما أخلقنا ببركم وتكرمتكم، وإيثارك، لو أن أمركم في الاعتقاد لنا على نحو أمرنا في الاعتقاد لكم، وما نحن عليه من الثقة بكم.
- (٤) المعنى: يقول: إن كان ما فعله الحاسد لنا، واختلقه الواشي بيننا، مرضيًا لكم، مستحسنًا عندكم، فما يتشكى الجرح إذا أرضاكم مع شدة وجعه، ولا يُكره مع استحكام ألمه، حرصًا على موافقتكم، وإسراعًا إلى إرادتكم.
- (٥) النهي: العقول، المعارف: جمع معرفة، الذمم: العهود، والمفرد: ذمة. والمعنى: يقول: إن لم يجمعنا الحب فقد جمعتنا المعرفة، وأهل العقل يراعون حق المعرفة، والمعارف عندهم عهود وذمم لا يضيعونها.
- (٦) المعنى: يقول: أنتم تطلبون لنا عيبًا فيعجزكم وجوده. وهذا تعنيف لسيف الدولة على إصغائه إلى الطاعنين عليه، ويكره الله ما تأتون من ذلك.
- (٧) ذان: إشارة إلى العيب والنقصان، الثريا: أنجم مجتمعة في السماء، الهرم: الكبر والعجز. والمعنى: أنا بعيد عن العيب والنقيصة، كبعد الثريا من الشيب والكبر.
- (٨) الغمام: السحاب، الصواعق: جمع صاعقة، وهي قطعة من نار تسقط بأثر الرعد الشديد، الديم: جمع ديمة، وهي مطر يدوم مع سكون. والمعنى: ليته أزال الشر الذي عندى إلى من عنده النفع.

- 31-أرى النوى تقتضيني كلَّ مرحلةٍ (٦)
 لا تستقلُّ بها الوخَّادةُ الرُّسْمُ (٦)
- 32-لئنْ تَرَكْنَ ضَمِيرًا عن مَيَامِنَا (٦)
 ليحْدُثَنَّ لَمَنْ وَدَّعَتْهُمُ نَدْمٌ (٦)
- 33-إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قومٍ وقد قَدَرُوا (٦)
 أنْ لا تُفَارِقَهُمُ فالراحلون هُمْ (٦)
- 34-شَرُّ البلادِ بلادٌ لا صديقَ بها (٦)
 وشَرُّ ما يَكْسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُّ (٦)
- 35-وشَرُّ ما قَنَصْتُهُ راحتي قَنَصٌ (٦)
 شَهْبُ البُزاةِ سواءٌ فيه والرَّخْمُ (٦)
- 36-بأى لفظٍ تقولُ الشعرَ زِعْفَةً (٦)
 تجوزُ عندك لا عَرَبٌ ولا عَجْمٌ (٦)
 عَجْمٌ (٦)
- 37-هذا عتابك إلا أنه مَقَّةٌ (٦)
 قد ضَمَّنَ الدرَّ إلا أنه كَلِمٌ (٦)

حب المتنبى لسيف الدولة وإهمال سيف الدولة له

هذه القصيدة – وكما وضعنا لها عنواناً – تدور حول حب المتنبى لسيف الدولة وعتابه إياه، وبقدر قوة حبه له يكون صدقه في عتابه، وجرأته في لومه أيضاً.

- (٦) النوى: البعد، الوخْد والرَّسْم: ضربان من السير، والوخادة من الإبل: التي تسيّر بالوخد، واحدتها: واحدة، والرسم: التي تسيّر بالرَّسِيم، واحدتها: رَسُوم، وراسيم. والمعنى: أرى النوى التي أريدها، والرحلة التي أعتقدها تقتضيني تجشم كل مرحلة وافية، لا تستبدَّ بها الإبل لبعد منالها، ولا تطبيقها لشدة أهوالها.
- (٦) ضمير: جبل على يمين طالب مصر من الشام، وهو قريب من دمشق. والمعنى: يقول: إن قصدت مصر ليحدثن لمن ودَّعتهم ندم على مفارقتي لهم، وأسف على رحيلي عنهم، يشير بذلك إلى سيف الدولة أنه يندم على فراقه، فكان كما قال.
- (٦) المعنى: يقول: إذا سرت عن قوم وهم قادرون على إكراكم بارتباطك، حتى لا تحتاج إلى مفارقتهم، فهم المختارون للارتحال.
- (٦) يصم: يعيب، والوصم: العيب، والجمع: الوُصوم. والمعنى: يقول: شر البلاد بلاد لا يوجد فيها من يؤنس بوَدِّه، ويسكن إلى كريم فعله، وشَرُّ ما كسبه الإنسان ما عابه وأذله. يريد أن هبات سيف الدولة وإن كثرت مع جلالتها وسعتها، لا تعادل تقصيره في حقه، وإيثاره لحساده.
- (٦) المعنى: وشَرُّ ما قَنَصه الصائد وظفر به، قَنَص يَشْرِكه فيه البزاة الشهب مع رفعتها، والرَّخْم مع سقاطتها ودنائتها وضعتها.
- (٦) زِعْفَةٌ: جمعها زعائف وهم اللئام السُّقَّاط من الناس. والمعنى: يقول لسيف الدولة: بأى لفظ تقول الشعر أرادل الناس لا عرب ولا عجم، يريد: ليست لهم فصاحة العرب، ولا تسليم العجم، فليسوا شيئاً.
- (٦) المَقَّة: المحبة والود، الكلام: يقع على القليل والكثير، والكلم: جمع الكلمة. والمعنى: هذا عتابك، وهو وإن أمضَكَ وأزعجك، محبة خالصة، ومودة صادقة، فباطنه غير ظاهره، كما أنه قد ضَمَّنَ الدرَّ وإن كان كَلِمًا معهودًا في ظاهر لفظه.

ولعل المتنبي يتشفع بهذا الحب الصادق منه لسيف الدولة في توجيه عتابه له، بل إغلاظه في العتاب في مقاطع معينة من قصيدته خاصة حين تقترب من نهايتها.

وفي رأيي أن المتنبي تلطف في توجيه العتاب مع أبيات القصيدة الثلاثة الأولى، ومزجه بمشاعر الحب الكبيرة، فبدأ العتاب في مساحة محدودة أمام مشاعر الحب الكبيرة التي يظهرها شاعرنا لسيف الدولة الحمداني. وهذا حسن استهلال منه، فهو لا يريد أن يجعل مشاعر الغضب تسيطر عليه من تجاهل سيف الدولة له، وتفضيله غيره ممن هم أقل شأنًا منه في موهبته واستماعه لوشايات خصوم المتنبي وتصديقه لها.

ولذا بدأ مقطعه الأول من قصيدته هذه بمحاولته السيطرة على مشاعر الغضب هذه إلى حد كبير، وجعل مشاعر الحب الصادقة التي تظهر على السطح، يكون لها الكلمة، لعله بهذا يرقق قلب سيف الدولة نحوه، ويجعله يستمع لعتابه وتفاصيل هذا العتاب – كما سنرى في أبياته التالية – بصدر رحب، ويعذر الشاعر إن تجرأ عليه في أسلوب العتاب.

وأول بيت في القصيدة بل أول كلمة - صرخة من القلب تعبر عن جرح كبير أصاب صدر المتنبي من تغير سيف الدولة عليه، حتى إن هذا التحول قد أمرضه، ومما يزيد في حزن شاعرنا أن سيف الدولة يعلى في مجلسه من قدر هؤلاء المنافقين الذين يظهرون له حبًا لا حقيقة له، وتكون أمنية شاعرنا أن يقتسم هو والمحيطون المنافقون بسيف الدولة حبه وإكرامه على قدر الحب الحقيقي الذي يبطنه هو وهؤلاء المنافقون لسيف الدولة.

ولكن هيهات فيبدو أن سيف الدولة قد استسلم لوشايات هؤلاء المنافقين، ويبدو أن خيوط الاتصال بين المتنبي وسيف الدولة قد عُثب بها بشكل يصعب إصلاحه، وصار سيف الدولة في حالة تصديق لكل ما يرمى به هؤلاء المنافقون المحيطون بسيف الدولة المتنبي به من أكاذيب واقتراعات لتشويه صورته عند سيف الدولة.

ونلاحظ في هذه الأبيات الثلاثة الأولى تكرار كلمة الحب أربع مرات، وذكر كلمة القلب في أوله، مما يدل – كما قلنا – على أن المتنبي كان حريصًا على أن يظهر مشاعر الحب الصادقة منه نحو سيف الدولة،

عسى أن تعود خيوط الاتصال بينهما ويفيق سيف الدولة من أكاذيب
الواشين.

"4-11" مدح المتنبي سيف الدولة بالنصر على الأعداء

ولكن المتنبي يدرك أن هذه المشاعر الصادقة التي يذكرها في
حب سيف الدولة والممزوجة بذلك العتاب الرقيق – في بداية القصيدة –
ليست كافية للدخول سريعاً في المكاشفة الصريحة من المتنبي في
مخاصمة سيف الدولة لانقلابه عليه، ولتغيره نحوه؛ ولهذا رأى بعد هذا
الاستهلال العاطفي المقصود في بداية قصيدته أن يخلص منه لامتحاح
سيف الدولة، وهو يركز في مديحه له على انتصاراته على أعدائه، في
نحو ثمانية أبيات، ويذكر خلالها في شطر حسن خلقه، ولكن تظل
الصورة الواضحة في مديحه إياه، تركيزه على شجاعته وقهره الأعداء.
وسنعلق على خصوصية هذا المديح والغرض منه، ولكننا نقول
قبل ذلك: إن المتنبي بذكره المديح بعد الأبيات الثلاثة الأولى المعبرة عن
صدق حبه لسيف الدولة قد حقق هدفين:

الهدف الأول هو الاستمرار في ترقيق قلب سيف الدولة نحوه لعله
يفيق من تجاهله للمتنبي، ويفيق من إغواء الواشين له عنده.

والهدف الثاني الذي حققه المتنبي من هذا المديح هو عرضه
مواهبه في غرض المديح لسيف الدولة وهو يمدحه؛ فكأنه يقول له: من
مثلى يمدحك بهذا المديح فيمن حولك من المتشاعرين أو الشويعريين، أو
حتى الشعراء أصحاب أنصاف المواهب؟ راجع نفسك .. قبل أن تفقد من
يمدحك بمثل هذه القوائد المعجزة^(٦).

أقول لعل المتنبي قصد هذا بمديحه سيف الدولة الذي ذكره
مباشرة بعد أبياته الثلاثة الأولى الاستهلاكية لقصيدته هذه.

وقد ركّز المتنبي على مدح سيف الدولة بقهره للأعداء وكثرة
انتصاراته عليهم؛ لأن سيف الدولة كان في حروب دائمة مع الروم،
وكان كثيراً ما ينتصر عليهم. ومثل هذا المديح لأمير مشغول دائماً

(٦) هذا على حدّ وصف أبي العلاء المعرّي لشعر المتنبي حين سمّى شعره: معجز أحمد.

بالحرب مرضٍ جدًّا له، بل هو مديح بلا شك يثير إعجابه، وفي الوقت نفسه يثبتُ ثقة جنوده الذين يحاربون معه فيه، ويكون رسالةً شديدة التحديّ لأعدائه إن وصلهم هذا الشعر وترجموه، ولعله يكون له تأثير معنوي في إضعاف همهم. خاصة أن المتنبي يبالغ في وصف قوة سيف الدولة، وشدة قهره لأعدائه؛ حتى إنه صار ينتصر عليهم بفرعهم منه.

ويذكر المتنبي خلال مديحه سيف الدولة أنه – أى سيف الدولة – لا يعجبه انسحاب هؤلاء الأعداء، بل هو يرغب في تتبعهم واستئصال آخرهم، ولا يحلو له إلا النصر في ساح المعارك بقطع رؤوس الأعداء، أما أن يفروا منه هربًا لخوفهم من بطشه، فهذا ما لا يعتد به سيف الدولة ولا يعدّه نصرًا.

وفي هذه اللوحة العسكرية التي رسمها المتنبي لسيف الدولة مبالغة واضحة، ولكنها مقبولة في ذلك العصر؛ لشدّ الهمم في نفوس المسلمين الذين كانوا يحاربون الروم مع سيف الدولة في معارك متصلة متتالية.

وأيضًا هذه المبالغة في المديح تتفق مع خط المبالغة الذي يشمل القصيدة من بدايتها لنهايتها، فالمتنبي يصور في بدايتها انفجار مشاعره المحبة لسيف الدولة مع أنه ألم عميقة لتجاهله إياه وتصديقه وشايات الواشين فيه، ثم بعد ذلك يصوّر لنا بشكل مبالغ فيه قوة سيف الدولة الحربية، وقهره لأعدائه برعبهم منه قبل أن يواجهوه في أرض المعركة. ثم بعد ذلك يبالغ في حديثه عن نفسه خاصة حين وصفه لفروسيته حتى إنه ليصوّر لنا نفسه شبيهًا بالفرسان الصعاليك – في الجاهلية – الذين اعتادوا حياة الصحراء مع وحوشها كما سوف نرى.

والملاحظة الأخيرة التي نقولها حول مديح المتنبي لسيف الدولة أنه مدحه ببطولاته العسكرية بشكل عام، دون أن يحدّد معركة معينة انتصر فيها على أعدائه.

وذلك كما قلنا لأن معارك سيف الدولة مع الروم كانت كثيرة متتالية، فهو أراد أن يصف طبيعة المعارك ويصوّر حال سيف الدولة فيها بشكل أقرب للخيال – أو على الأقل للمبالغة – حين صوره – كما قلنا – بالبطل المرعب الذي يخشاه أعداؤه بمجرد سماعهم أنه يقترب منهم، فيفرون منهزمين.

" 14-12 " المتنبي يعاتب سيف الدولة بقدر من الجرأة

وبعد أن استرضى المتنبي سيف الدولة بمديحه إياه، وقبل ذلك بذكره مشاعره الجياشة الصادقة نحوه – فإنه يتجرأ في عتابه جرأة أشد مما رأينا في مستهل قصيدته، بل إنه يصرِّح له بأنه يعدل في حكمه مع كل الناس إلا معه فإنه يظلمه، ويواجهه بأنه يسىء تقدير الأمور حين يميِّز المنافق المخادع على الصادق المخلص.

ويوجِّه له في البيت الرابع عشر انتقادًا شديدًا يُغلفه بحكمة من حكمه: فإنه لا يفيد النظر صاحبه إن كان لا يستطيع أن يميز بحق بين النور والظلمة، وهذا على سبيل الاستعارة؛ يعنى أنه ما قيمة العقل الذى تملكه يا سيف الدولة إن كان لا يستطيع أن يميز بين الأخيار والأشرار، وبين المخلصين والمنافقين، وبين الصادقين والمخادعين.

لا شك أن هذا البيت يحمل قدرًا من الهجوم على سيف الدولة، وليس مجرد العتاب الرقيق كما رأينا في مستهل قصيدة المتنبي.

إذن لقد بدأ المتنبي بهذه الأبيات يصعد من وتيرة عتابه، ويجعله ممزوجًا بشيء من الحدة والغضب، لعل سيف الدولة أن يعى أن هذا الغضب فى العتاب صادر عن مشاعر حب عبّر عنها شاعرنا فى بداية قصيدته، وأيضًا هذا الغضب صادر عن شاعر قدير بيّن مواهبه فى مديح سيف الدولة بما لا مثيل له .. فحق له إذن أن يترك لمشاعر الغضب فى العتاب أن تخرج من صدره، وسيحملها سيف الدولة للأسباب السابقة؛ ولأنه تربطه بالمتنبي صداقة، فلم يكن المتنبي مجرد شاعر فى بلاط سيف الدولة بل كان صديقًا محبًا له؛ ولذلك استعار المتنبي من قاموس الغزل بعض مفرداته وهو يمدح سيف الدولة؛ ليعبر عن حبه لسيف الدولة وصدق مشاعره الصادقة نحوه كما رأينا فى الأبيات الثلاثة الأولى من هذه القصيدة.

" 23-15 " فخر المتنبي بنفسه

وعلى الرغم مما رأيناه فى الأبيات الثلاثة السابقة من حدة من المتنبي فى عتاب سيف الدولة، فإنه لم يتماد فى هذا العتاب بل خرج منه سريعًا – وسيعود إليه فيما بعد –؛ لأن التمدادى فيه ربما يستثير غضب سيف الدولة، ويجعل رسالة العتاب الموجهة منه إليه فى هذه القصيدة تفقد معناها، فتصبح تهديدًا منه له وانتقاصًا لقدره.

وقد رأى المتنبي فى المقطع التالى من قصيدته – أن يدافع عن نفسه أمام انتقاص سيف الدولة له، وتصديقه أقوال الواشين والمحيطين به فيه .. وفى الوقت نفسه أراد أن يجعل لعنابه العنيف الذى ذكر قدرًا منه فى الأبيات السابقة – وسيتابع عرضه فيما بعد فى قصيدته – ظهيرًا يستند إليه أمام الموجه إليه هذا العتاب – وهو سيف الدولة – فاستعان بذكره مواهبه فى الشعر والفروسية.

وبدا بالحديث عن موهبته فى الشعر؛ لأنها الأبرز فى حياته، والتى لا يساويه فيها أحد فى عصره – على الأقل – ثم تحدث عن قدراته الكبيرة فى الفروسية والقتال.

وقد ذكرنا أن طابع الفخر الذاتى هنا يغلب عليه المبالغة والمغالاة، ولعل طبيعة المتنبي المحب لذاته الشاعرة بعظمتها وراء هذا الفخر الذاتى المشحون بالمغالاة فى تقدير الذات. وقد فخر شاعرنا بنفسه بمثل هذه الطريقة فى أبيات أخرى عديدة له فى قصائد أخرى، ولكن يبدو أن الموقف هنا – بشكل خاص – فرض على المتنبي مثل هذا الحديث عن النفس بهذه الطريقة؛ فقد أراد أن يؤكد – لنفسه ولغيره – مكانته الكبيرة فى عالم الشعر والفروسية فى مواجهة انقلاب سيف الدولة عليه وتهوينه أمره.

وأيضًا لعل المتنبي بهذا الفخر أراد أن يُعرّف سيف الدولة بأهميته، وأنه سيفقد شخصًا عظيمًا إن تركه يرحل عنه بعد أن صدق وشايات الواشين فيه.

والظاهر للنظر فى هذا المقطع – إلى جانب ما سبق – تكرار المتنبي فيه ضمير المتكلم كثيرًا، مما يوحى بإحساسه الشديد بالعظمة، وإظهاره تفوقه على كل منافسيه فى مجال الشعر والفروسية أيضًا.

وأيضًا يلاحظ فيه مزج هذا الفخر الذاتى بالحكم حتى ليوحى لنا بهذا الأسلوب أن ما يقوله عن نفسه حقائق لا تقبل الجدل، ومن ثمّ يكون فى هذا رسالة موجهة – بشكل خاص – لسيف الدولة لعله يعيد النظر فى شأن تجاهله للمتنبي وإعراضه عنه.

" 24 – 30 " عودة المتنبي لعتاب سيف الدولة بجرأة شديدة

وفى هذا المقطع يعود المتنبي – بعد أن أَرْضَى نفسه بذكره مواهبه وجيل صفاته – لعتاب سيف الدولة، ولكنه – فى هذا المقطع – يزيد من وتيرة العتاب – بشكل أعلى مما رأيناه فيما سبق – وقد جرَّأه على ذلك إحساسه الشديد بنفسه مما ذكره فى المقطع السابق عن نفسه، فكيف لنفس هذا قدرها، ولشخص هذه مواهبه أن ينتقص بهذا الشكل، وأن يُقدِّم صغار الناس عليه، ويُجاهل من قبل سيف الدولة.

من هنا كانت وتيرة العتاب فى هذا المقطع أشد – بل لقد وصلت لذروتها – ومن الواضح أن المتنبي يعيد نغمة العتاب من حين لآخر فى أبيات قصيدته، ولكنه فى كل مرة يستدعى فيه هذه النغمة يزيد فى حدته، ويكون ما قبلها مهيناً لهذه الحدة كما رأينا فيما سبق.

وفى هذا المقطع يمزج المتنبي بهذا العتاب الحاد فخره بنفسه، كأنه يرى نفسه كفنًا لسيف الدولة فى تقديم هذا العتاب الحاد إليه.

والأبيات الثلاثة الأخيرة – من هذا المقطع – تصوّر بشكل واضح كيف أن سيف الدولة يحتال فى البحث عن خطأ أو عيب للمتنبي، ولكنه لا يستطيع إيجاد ذلك؛ لأن المتنبي منزّه – فى رأى نفسه – عن العيب والنقصان كما أن الثريا لا يصيبها الهرم.

ومع ذلك يستمر سيف الدولة فى استعداد المتنبي بإرسال صواعق غضبه وإساءاته إليه، فى حين يرضى عن الواشين المنافقين ويجود عليهم بإحسانه.

إنها جرأة شديدة فى العتاب، ومغالاة فى الفخر بالنفس والإعجاب بالذات، ولعل هذه الجرأة فى العتاب لا يرضى عنها سيف الدولة مهما كان التمهيد الذى سبقها، ومهما كانت الحكم التى تصاغ من خلالها هذه المعانى؛ فتكون كالمرشح لإثباتها وصحتها.

وفى هذا المقطع يشير المتنبي لاستعداده للرحيل عن بلاط سيف الدولة، ويبدى أسفه على ذلك، ولكنه – على حد قوله – مضطر لذلك،

إزاء معاملة سيف الدولة السيئة له كما يصورُها في أبيات هذا المقطع من قصيدته.

ولكنه في المقطع التالي – والأخير – يذكر من بدايته أن الرحيل عن بلاط سيف الدولة أمر حتمي.

"31-37" قرار المتنبي بالرحيل بسبب التجاهل وسوء المعاملة

يكرر المتنبي في الأبيات الثلاثة الأولى من هذا المقطع معنى الرحيل، ويشعرنا أن الرحيل عن سيف الدولة وبلاطه هو السبيل الوحيد أمامه، بعد أن توترت العلاقة بينهما بهذا القدر الشديد الذي تظهره هذه القصيدة.

ولعل الشاعر كان بالفعل – قبل كتابته هذه القصيدة – قد عقد العزم على الرحيل إلى مصر، تاركًا بلاط سيف الدولة، ولكنه كان يأمل – ولو أملاً ضعيفاً – بقصيدته هذه أن تهز قلب سيف الدولة فتصفو نفسه إليه، ويراجع مواقف الواشين به عنده.

ولكن سيف الدولة لم يفعل، ولعل حدة المتنبي في عتابه خاصة مع منتصف القصيدة إلى المقطع قبل الأخير منها – كانت سبباً آخر في صد سيف الدولة عنه، واستمرار غضبه عليه، إن لم يكن هذا الغضب قد زاد بعد سماعه هذه القصيدة، وإن كان قد ندم بالفعل بعد ذلك بعد أن تركه المتنبي وسافر إلى مصر في رحاب "كافور الإخشيدي".

وفي هذا المقطع يواصل المتنبي عتابه لسيف الدولة، ولكنه هنا يعود من حيث ابتداءً، فيخفف من نبرته، وكان قبل هذا المقطع الأخير من قصيدته كلما خطا للأمام فيها أعلى من نبرة حدة العتاب بها، حتى إذا ما وصل لنهايتها في هذا المقطع عاد من حيث ابتداءً؛ فرقق في عتابه مما يجعل هذه القصيدة كأنها معزوفة موسيقية تبدأ هادئة ثم تتصاعد الأنغام بها إلى أن تصل لفورتها، ثم تعود الأنغام مع نهايتها للهدوء من جديد.

وهذا التتابع والتصعيد ثم العودة للهدوء فى نعمة العتاب بها يجعلها قصيدة مشحونة بالإحساس الدرامى.

والملاحظ أن المتنبى فى هذا المقطع يمزج بين عدة أمور: عتابه لسيف الدولة وإظهار حبه له، وفخره بذاته من خلال تباهيه بشعره – كما نرى فى آخر بيت من هذه القصيدة –، وسخريته من خصومه الذين رأهم لئامًا سُقَّاطًا ومتشاعرين أقزامًا أمام عملقته فى عالم الشعر.

فى هذا المقطع جمع المتنبى كل ما ذكره فى المقاطع السابقة، وركَّز على عتابه سيف الدولة، ولكنه هنا – كما قلنا – لا يسرف فى الحدة فى العتاب، بل يعود للرقّة والوداعة – كما فى أول قصيدته – لعل سيف الدولة أن يرق له، ويتمسك به قبل أن يبدأ رحلة خروجه من بلاطه وهجره لدولته وصحبته.

ويختم المتنبى قصيدته بهذا البيت الذى يصوّر به عتابه الرقيق لسيف الدولة، وفخره بشعره الذى طالما كسا به سيف الدولة لآلى ثمينة من مديحه يقول:

هذا عتابك إلا أنه مَقَّةٌ قد ضُمَّنَ الدُرَّ إلا أنه كَلْمٌ